بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

يُعدّ العراق الموطن الأول لأقدم المفاهيم الجغرافية، فعلى ارضه وضعت اقدم خريطة معروفة للعالم في الحضارات القديمة، كما خَلّف لنا العراقيون القدماء اقدم خريطة زراعية في تأريخ حضارة الانسان رُسمت عليها حقول زراعية ومجموعة من جداول الري والقرى والطرق على النحو الذي تُرسم فيه خرائطنا الحديثة، وتُعد هذه الخريطة اقدم ما وصل الينا من المفاهيم الجغرافية القديمة، يعود تأريخها الى ما قبل اكثر من ٣٥٠٠ سنة وهي توضح طراز الحياة الريفية القديمة وكيفية تنظيم جداول الري وتثبيت ملكيات الحقول الزراعية والقرى. كما ان هناك خريطة طوبوغرافية وضعت في القرن الخامس عشر قبل الميلاد عثر عليها في منطقة كركوك ابرز ما فيها انها تشير الى الاتجاهات الجغرافية من شمال وشرق وغرب اما الجنوب منها فقد تُلم القسم الذي كانت الكتابة عليه. وفي دراستنا لمضامين النصوص المسمارية المكتشفة في بلاد الرافدين، نجد معلومات جغرافية غزيرة يمكن ان تكون اساسا لما عرف فيما بعد بعلم الجغرافية. اذ تؤكد هذه النصوص ان العراقيين القدماء عُنوا بتدوين بعض المفاهيم الجغرافية ولكن بأسلوبهم الخاص، فرسموا الخرائط للمدن والاراضي، وحددوا الابعاد والاتجاهات الاربع، وثبتوا اسماء المدن والبحار والانهار والى غير ذلك من المعلومات التي تقع ضمن حقل الجغرافية، ومما تجدر الاشارة اليه هنا، ان هذه المعلومات تعد معلومات اكثر صدقا ودقة من غيرها من المعلومات التي ذكرت في النصوص حيث انها لا تحتمل المبالغة او الخيال إلا بقدر محدود جدا وانها تعكس تصور العراقيين القدماء عن مواقع المدن ومراكزها بالنسبة لبعضها البعض وبالنسبة الى الانهار والبحار والجبال وتثبيت المسافات، فضلا عن بعض الحقائق الاخرى ذات العلاقة، ولم تكن تهدف بأية حال من الاحوال الى الإعلام.

ولمّا كانت المعارف الجغرافية في الحضارات القديمة كالمصرية واليونانية والرومانية والصينية والهندية والعربية الاسلامية تحظى باهتمام كبير من لدن الباحثين المُحدثين عامة والمؤرخين والجغرافيين بشكل خاص. لذا جاء هذا المجهود المتواضع ليكمل الخطى على الطريق الذي اختطته لنا نخبة من الباحثين، وليسد فراغا نشعر بوجوده في المكتبة العربية الجغرافية. ويأتي التصدي لهذا الموضوع استكمالا للجهود العلمية التي تناولت المعارف والعلوم الإنسانية الاخرى الى جانب العلوم الصرفة في حضارة بلاد الرافدين القديمة. وتأكيدا على أهمية الدراسات الجغرافية للباحث في الآثار والتأريخ لاستكمال رسم الصورة اللازمة للأحداث التاريخية وتفسير طبيعة النتاجات المادية للانسان. ومن الضروري الاشارة الى ان (المعارف الجغرافية عند العراقيين القدماء) موضوع دراستنا، وما كتب عنه لا يشكل سوى إشارات عابرة جاءت متناثرة في

المصادر التي تناولت بعض اوجه وعناصر الحضارة العراقية القديمة إلا أننا نجد أيضا أن من الموضوعية بمكان ان نقر بوجود روّادٍ اجانب وعرب سبقونا في هذا المجال، اسهموا في انارة الطريق وتحديد معالمه سواء أكان منهم مَنْ ألّف كتبا أم أنجز ابحاثا متخصصة في هذا الحقل، ونشير في هذا المقام على سبيل المثال لا الحصر الى جهود الباحثين ادزارد Edzard وشتينكلر Steinkeller ولانـــدزبيركر Landsberger وكـــوتزه Goetze وليفـــاين Levine و كيســـلر Kessler و زادوك Zadok و روليـك Rollig وروشـيل Russell وهـاوكينس Hawwkins وكريسن Grayson وباربولا Parpola ونعمت نجاة Nejat – Nemet ومن الباحثين العرب فاروق الراوي ونائل حنّون وخالد الناشف وغيرهم غير ان الملاحظ على جميع مؤلفات وابحاث اولئك الباحثين انها لم تأت الا على بعض جوانب الجغرافية ولم تغطّ جميع مقومات الفكر الجغرافي العراقي القديم. وكان الاهتمام والتأكيد في هذه الدراسات كلها منصبا على جانبين من جوانب المعرفة الجغرافية وهما فن رسم الخرائط Cartography قديماً والمواقع الجغرافية وقوائم الاسماء الجغرافية بما فيها الجغرافية التأريخية، وهذان الاتجاهان في الدراسات الجغرافية أنسب الى بدء معارفنا وتحديثها عن الجغرافية والمعرفة الجغرافية قديماً، بينما نرى ان بعض المفاهيم الجغرافية الأخرى عند العراقيين القدماء كفروع الجغرافية البشرية والطبيعية ومنها علم أشكال الارض (الجيموروفولوجيا) وملامح سطح الارض (الطوبوغرافيا) وغيرها من المظاهر الجغرافية لم يسلط عليها الضوء بشكل مناسب فبقيت يكتنفها الغموض.

إن الآفاق المبكرة للفكر الجغرافي العراقي القديم، قد اتّخذ منذ البداية اتجاهين رئيسين، الاتجاه الأول إلتصق بالأرض والاتجاه الثاني، ظل شاخصاً نحو السماء. ويمكن تسمية الاتجاه الاول على ضوء المبادئ الاولى للفكر الجغرافي، بالجغرافية، والاتجاه الثاني، بالفلك والتنجيم وعلى ضوء ذلك ستكون متابعتنا لتطور الفكر الجغرافي متابعة للاتجاهين وما يتضمنان من افكارٍ فرعية، ففي مجال الجغرافية تركز اهتمام العراقيين القدماء على امور عديدة منها ما ورد ضمن الاسس المشتركة للحضارات القديمة ومنها ما اختصت به الحضارة العراقية القديمة أما في مجال الفلك فقد قسموا الليل والنهار الى ١٢ ساعة والاسبوع الى سبعة ايام فضلا عن مساهمتهم الفعالة في ارصاد تسجيل شروق وغروب كوكب الزهرة مع الشمس ومحاولاتهم لرصد مواقع النجوم المختلفة.

وطبّق الكتبة العراقيون القدماء منهجاً يعكس ثوابت اصالة الفكر الجغرافي العراقي القديم في دقّة المشاهدة وصِدق الملاحظة وبراعة اختيار المعايير العلمية السليمة لرسم الخرائط التي ساعدت على تقدّم العلم وأفادَ العالمَ منها. وقد اضاف العراقيون القدماء مادة غزيرة من المعرفة الجغرافية بحكم اتساع افقهم الجغرافي وطبيعة معتقداتهم الدينية كما تدل على ذلك نصوصهم كقصة الخليقة البابلية وملحمة كلكامش والنص الذي اصطلح عليه الباحثون المعاصرون

بجغرافية شرّوكين (سرجون) الأكدي والحوليات الملكية الاشورية ومخططات بعض الرحلات ومساراتها وقوائم اسماء المواقع الجغرافية ونصوص الارصاد وكتاب الفلاحة وغيرها.

ومن هنا ومن اجل تقديم صورة واضحة عن هذه المعارف جاء اختيار هذا الموضوع للبحث، وقد آثرنا اعتماد منهج التحقيق البلداني لبعض المواضع المجهولة الموقع، والتحليل اللفظي للمفردات والمصطلحات الجغرافية باللغتين السومرية والاكدية ومحاولة مضاهاة بعضها بمفردات عربية كلّما أمكن ذلك، لما لهذا المنهج من مزايا في التعاطي مع هذه الدراسة، ايمانا مِنا بان الدراسة لا تقتصر فقط على سرد الروايات والنصوص المسمارية بمضامينها المختلفة، بل حاولنا مناقشة وتفسير عدد من المفاهيم ذات العلاقة الى جانب تحليل أسبابها وتخريجها بغية الوصول الى استخلاص النتائج وما افرزته الدراسة من مظاهر للفكر الجغرافي العراقي القديم. فضلا عن تبني منهج المدرسة العراقية[1] في كتابة اسماء المواقع الجغرافية واسماء الاعلام بالحرف العربي ولا سيما اسماء الملوك العراقيين القدماء التي وردت محرّفة قليلا في التوراة. لتتفق مع النطق الاكدي وكما وصلتنا في النصوص المسمارية وايمانا منّا بأن كِلا اللغتين الاكدية والعربية هما غُصنان من دَوحَةٍ واحدة ويعودان لذات الارومة وهي اللغة العاربة (السّامِيّة) الام.

واقتضت طبيعة الدراسة تقسيمها الى خمسة فصول:

ضم الفصل الاول **اتجاهات الفكر الجغرافي العراقي القديم وآفاقه** وقد اشتمل على رؤية العراقيين القدماء لـ **نشأة الكون** و**معرفة الاتجاه** و**تنظيم الوقت والتقويم** و**قياس المسافات** فضلا عن **الرِّحلات** وَ**سِعَة الافق الجغرافي**.

اما الفصل الثاني فقد تصدى لدراسة **فروع الجغرافية التي عرفها العراقيون القدماء** وقد تم استعراض اهم هذه الحقول منها: **الجغرافية الطبيعية** وفروعها المهمة مثل: الجغرافية الفلكية والرياضية وعلم اشكال الارض (الجيمورفولوجي) وملامح سطح الارض (الطبوغرافيا) و**المناخ والانواء الجوية**، و**الجغرافية البشرية** وَعَرّجنا على أهم جوانبها والتي من بينها: **الجغرافية الاجتماعية والثقافية** و**الجغرافية السياسية** و**جغرافية الاستيطان(النمط الريفي والنمط الحضري)** و**جغرافية المدن** و**الجغرافية التأريخية** و**الجغرافية الاقتصادية** بفعّالياتها وأبعادها الأربعة، وهي: **الجغرافية الزراعية، والصناعية وجغرافية النقل والتجارة والجغرافية الاقليمية**. في حين تناول الفصل الثالث **اهتمام القوم برسم الخرائط والمخططات**، فقد عرفوا انواعا من الخرائط والمخططات اشتملت على المواضيع الاتية: **الخرائط التي تبين المُلكية او التفصيلية (الكادسترالية) – والخرائط الزراعية وتلك التي تُبيّن ملامح سطح الارض (الطوبوغرافية) ومن**

(١) وهي انجازات ومساهمات يحاول ترسيخها الأستاذ الدكتور عامر سليمان عضو المجمع العلمي العراقي والأستاذ في قسم الآثار/كلية الآداب جامعة الموصل منذ ٣٠ سنة في مجالي التاريخ والآثار وهي في طريقها الى التطبيق في عموم الجامعات العراقية والمؤسسات الآكاديمية إن شاء الله.

بينها التضاريس الى جانب خرائط المدن والمدن المخططة او التصميم الاساس للمدن وللوحدات البنائية فضلا عن خريطة العالم البابلية والخرائط الفلكية. والقى الفصل الرابع الضوء على **القوائم المعجمية الجغرافية** التي خلّفها الكتبة العراقيون القدماء والتي ضمت قوائم باسماء **المدن والاقاليم والبلدان والجبال والبحار والانهار والقنوات والمعابد والاقوام والشعوب** شَكَّلت ما يمكن تسميته في مصطلحات العصر بـ (الاطلس) لمواقع عديدة من منطقة الشرق الادنى القديم.

وعالج الفصل الخامس **الحِسّ الجغرافي على المخلّفات والأعمال الفنية الاثارية** التي وفّق فيها الفنان والنحات العراقي القديم في تمثيل مشاهد البيئات الطبيعية المختلفة وطبوغرافيتها ومظاهرها الجغرافية الاخرى، وقد عُزّز الفصل باشكال والواح تبينّ نِتاج العراقيين القدماء في هذا المجال. وقد تطرقت الدراسة الى تأثير الفكر الجغرافي العراقي القديم في الفكر الجغرافي عند الامم الاخرى. واستكمالا للفائدة فقد اعد الباحث كشافاً بالمفردات الجغرافية باللغتين السومرية والاكدية، التي وردت في نصوص الآداب الجغرافية عند العراقيين القدماء، فضلا عن جداول خاصة بالوحدات الجغرافية والاقليمية، والعلامات المسمارية الدّالّة ذات البعد الجغرافي، واخرى لآلهة المظاهر والظواهر الجوية الجغرافية.ولا يسعني في الختام إلا أن اتقدم بالشكر والعرفان الى الاستاذ الدكتور عامر سليمان الذي تفضل بالاشراف على هذه الدراسة، فقد كان لجهوده وتوجيهاته القيمة الاثر الكبير في تقديم هذه الدراسة وانجازها على هذه الصورة، كما أن واجب الوفاء يُحتِمّ عليّ ان اسجل شكري وامتناني للاساتذة في قِسمَيّ الاثار والدراسات المسمارية واخص منهم بالذكر الاستاذ الدكتور علي ياسين احمد، والاستاذ خالد سالم اسماعيل رئيس قسم الدراسات المسمارية والاستاذ المساعد الدكتور حسين ظاهر حمود رئيس قسم الآثار، والدكتور فوزي يونان منصور من قسم الجغرافية في كلية التربية والاستاذ المساعد الدكتور يوسف جرجيس الطوني من مركز دراسات الموصل/جامعة الموصل لما ابدوه من ملاحظات علمية اغنت البحث.

ومن الله التوفيق

الباحث